العصر الرقمي وثورة الوسيط الإلكتروني
قراءة في تحوّلات أطراف المنظومة الإبداعية

أ - عمر زرفاوي بن عبد الحميد
قسم الآداب واللغة العربية
جامعة تبسة

لكلّ وسيط دوره في تطوّر الحضارة البشرية،وللطباعة فضل كبير فيما تحقّق من إنجازات فكرية ومنعطفات تاريخية وتحوّلات حضارية،لقد غيّرت الطباعة«وظيفة المعلومات إلى"نشر المعرفة"لا مجرّد تسجيلها،وهو ما أدّى بدوره إلى سقوط سلطة الكنيسة(*)وسلطة الإقطاع وسلطة المتحدّث على مستمعه التي منحته إيّاها التواصل الشفهي لما قبل عصر الطباعة، وبذلك تحقّقت للإنسان خلوته مع كتابه"المطبوع"وسيلته لإغناء معرفته وفرصته للتمّعّن المتأني في مضمون نصوصه،لتنمو لديه النزعة النقدية العقلانيّة»(1).

وبانفراد الإنسان بكتابه المطبوع عايش أوّل لحظة للاغتراب،واتّسعت المسافة بينه وبين أفراد مجتمعه بعدما كان يقطن جنّة"عدن"التّي يتم فيها«الاتّصال بين النّاس بطريق مباشر أي وجها لوجه...والكلامُ هو أداة التّواصل،وهي أداة تجمع بين النطق والسّمع والرؤية المباشرة بل وأحيانا اللّمس والشّمّ ولغة الجسد وتعبيرات الوجه وما إليها بفضل التقارب الجسدي في المكان بين طرفي العلاقة»(2).

بذلك وضعت الطباعة حدّا فاصلا بين حقبتين؛حقبة التواصل الشفاهي وحقبة التواصل المكتوب،ومع ولوج الحضارة الإنسانية عصر المكتوب عاش الإنسان أوّل لحظة اغتراب.إنّ ظهور الطباعة يعدّ«بداية لاختفاء العلاقة المباشرة وتباعد الأفراد وانفراد كلّ منهم بالكتاب أو النّص المطبوع الذّي أصبح هو أداة التواصل بين الكاتب (المرسل للرسالة)والعالم الخارجي (الفرد أو الأفراد)الذين يستقبلون الرسالة»(3)

على إثر ذلك غادر الإنسان جنّة"عدن"وطرد منها شانه في ذلك شأن إنسان الخطيئة الأولى،فالطباعة- على رأي "مارشال مكلوهان M.Macluhan-

(1891ــ1980)"–هي التّفاحة التي استخدمتها «الأفعى في إغراء آدم،وترتّب على ذلك الإغراء والإغواء خروج آدم من الجنّة،(وذلك) بالضبط ما فعلته الكتابة بأساليب الاتّصال المباشر التي عرفها المجتمع البدائي البسيط المتجانس»(4).

ويعتقد مكلوهان أن الكفيل بإعادة الإنسان إلى جنّة"عدن"/المجتمع البدائي هي وسائل الإلكتروني،فهذه الأخيرة«تقوم بدور فعّال في ربط النّاس في كلّ أنحاء العالم بعضهم ببعض وتساعد على إزالة الفوارق والاختلافات بحيث تردّ العالم إلى التجانس الذّي يميّز الحياة في المجتمع القديم البسيط،وسوف يساعد ذلك –كما يرجو مكلوهان– على قيام تلك القرية الإلكترونية أو القرية العالميّة التي تعيد أمجاد جنّة عدن»(5).

وقبل أن يتحقّق ما تحقّق كان عالم الاجتماع الكندي يؤسّس لنظرية جديدة في علوم الاتّصال،لقد أدرك "مكلوهان"أنّ المهمّ في العملية التواصلية ليس محتوى الرّسالة بقدر ما يهمّ الشّكل الذّي يتّخذه الاتّصال،فطبيعة « الأداة أو وسيلة الاتّصال لها دخل كبير في تحديد نوع الرّسالة التي يراد توصيلها والأثر الذّي تتركه هذه الرّسالة لدى(المستقبلين)،وليس المهم هنا هو محتوى الرّسالة أو مضمونها،وإنّما المهمّ هو طبيعة الأداة التي تتولّى عملية النّقل والتوصيل نظرا لأنّ هذه الأداة تتحكّم في تحديد وتوجيه العلاقات الإنسانية»(6).

وهكذا ضمّن"مكلوهانM.Macluhan "تصوّراته الجديدة عن التواصل الجديدة في تعابير لا تنسى من قبيل "الرسالة هي الوسيط أو(القناة) le message c'est le médium"،وعلى الرغم من أهميّة الرّسالة في العصر الحديث إلاّ أنّها« غدت أسيرة الوسيط يثمّنها ويضخّمها رغم(تفاهتها أو تفاهتها)أو يقزّمها ويقتلها (رغم جلال شأنها) ،إنّ الرّسالة باعتبارها مدلولا تذوب كليّة في الوسيط الذّي أصبح رسالة؛دالا ومدلولا في الوقت نفسه،ومع هذا التّحوّل الخطير،تتحقّق مقولة أحد المفكّرين عندما يلاحظُ التحكّم الكلّي للوسيط في الخبر الإعلامي:"الأصفار تصبحُ أبطالا،والأبطال تصبحُ أصفارا »(7).

وبولوج الألفية الثالثة يشهد العالم نقلة نوعيّة في تكنولوجيا الوسائط والاتّصالات أشبه بتلك التي شهدها العصر الحديث مع اختراع الطباعة حيث هزّ الكتاب الإلكتروني عرش الكتاب المطبوع وانتزعت الثقافة الإلكترونية مكان الصّدارة من ثقافة المطبوع لتكون بديلا لبيان/ مانفستو النهايات،نهاية الكتاب الإلكتروني/ الرقمي ونهاية المكتبة وميلاد المكتبة الرقميّة المتخيّلة،«فثورة غوتنبرغ(**)في مجال الكلمة المطبوعة – باختراعه

الحروف المعدنية المنفصلة- كانت النواة والركيزة الأساسيّة لتطـوّر عمليّـة الطباعـة وتقدّمها فيما بعد حتّى وقتنا هذا،والآن نحنُ تفاجئنا التكنولوجيا بمنتج جديد...يمثل تحـدّيا قويا للكلمة المطبوعة ألا وهو الكتاب الإلكتروني »(8).

وإذا كان"مارشال ماكلوهان M.Macluhan"قد أكّد الرسالة هي الوسيط فإن"نـوربرت وينر Norbert Wiener" يرى- فيما نقله سعيد يقطين-أنّ ما هو هامّ في التواصل ليس الرسالة ولكن الشبكات أو(الوسائط) التي تحمل الرسالة ،وتأسيسا على ذلك يمكننـا القول إنّ طبيعة الوسيط هي من تحدّد طبيعة أطراف المنظومـة الإبداعيـة،«إنّ الـنص يختلف معناه باختلاف الحامل الذي يكتب عليه،فالحامل الماديّ ليس مسألة شكليّة ولا أمرا عرضيا،إنّ النص لا يلقى الاستجابة نفسها إذا كان مكتوبا على قطعة جلد أو على دفـاتر القطني،الـورق هـشٌ لا يحفـظ الـنّص ولا يصـونه،أمّا الجلـدُ فهـو يصـبر على"الحكّ"و"التغيّر"»(9).

وذلك يعني أنّه متى كان الوسيط ورقيا كـان المبـدع والـنص والمتلقـي ذوي طبيعـة ورقية،وإذا ما كان إلكترونيا صبغت تلك الأطراف بالصبغة الإلكترونية،عكس ما ذهبـت إليه الباحثة"فاطمة البريكي"عندما أكدّت أنّ طبيعة المبدع هي مـن تحـدّد طبيعـة بـاقي العناصر في العملية الإبداعية قائلة :«تبدو المقارنة بين المبـدع فـي حالتيـه الورقيـة والإلكترونيّة ضروريّة في سياق الحديث عن التّطوّر الذّي طرا على العمليّة الإبداعيّة،لأنّ المبدع هو المصدر الأوّل للنّص،قبل انتقـال ملكيتـه منـه إلـى المتلقـي،أو جمهـور المتلقين،فلابدّ أن يـؤدّي اخـتلاف طبيعتـه إلـى اخـتلاف يشـملُ العمليّـة بجميـع عناصرها»(10).

01- المبدع الورقي والمبدع الإلكتروني:

يعزى الفضل في ظهور المبدع الإلكتروني إلى توظيف التقانة الرقمية في مجال النشـر والطباعة وولوج الحاسوب عالم الإبداع الأدبي،وذلك يعني أن مفهوم"الكاتب"نفسه بصـدد التّغيّر جذريا ،ففي الماضي كان"الكاتب"هو من يصدر له كتـاب أو أكثر،واليـوم صـار بمقدور أيّ كان أن ينشر ما يشاء على الإنترنت،إنّنا غدونا على أبـواب تعريـف جديـد للكاتب،فتغيّر الوسيط من صورته الورقية إلى صورته الإلكترونية أدّى إلى تغيّر شـامل مسّ أطراف ومكوّنات العملية الإبداعية؛ مكّن المبدع الإلكتروني من التعـديل المسـتّمر لنصه الإبداعي ،فهذا الأخير- إبداعيّا كان أم فكريا- ظلّ يقدّم مع النشر المادّي«باعتباره منتهيا،لا يمكن لمؤلّفه أن يجري عليه أي شكل مـن أشـكال التّعـديل (حذف،توسـع

،مراجعة، تصحيح،تنقيح،...)إلاّ في شكل طبعة ثانية أو نشر جديد»(11)،أمّا النشر الإلكتروني فقد«جعل من العمل نفسه ورشة قابلة للتعديل على الدّوام، بحيث لا يوقفُ هذه التعديلات إلاّ رغبة المؤلّف»(12).

بفضل الوسيط الجديد– الذّي لولاه لما استطعنا اليوم التفريق بين المبدع الورقي والمبدع الإلكتروني– ضرب المبدع صفحا عن القلم والأوراق ليستعمل الآلات والبرامج ويبدع بواسطتها ويطوّر فيها كما يطوّر العمل الإبداعي نفسه،إنّ المبدعين الإلكترونيين«لم يعودوا يهتمّون النّص الظاهر فقط،بل بالنّص الخفيّ أو البرنامج ، ويعملون على الإبداع في هذا المجال أيضا؛لأنّ تطوير البرنامج يؤدّي إلى تطوير في العمل ذاته،فنجدهم إمّا يتعاونون مع مبرمجين،أو أنّهم يقومون بمهمّة تطوير البرنامج بأنفسهم،فنجد"دافيد بولتر David Bolter" أستاذ الكلاسيكيات،و"جون سميث John Smith "الأستاذ في علوم الكمبيوتر،و"ميشيل جويس"أبرز كتّاب القص الشعبي،يتعاونون في تصميم برنامج يطلق عليه"space Story"،وهو برنامج يساعد كتّاب القصة على تطوير عملهم»(13).

ولذلك يدعو محمد سناجلة في كتابه"رواية الواقعية الرقميّة"إلى **عولمة الأدب** ويطلب من الروائي أن يكون «شموليا بكل معنى للكلمة،عليه أن يكون مبرمجا أوّلا،وعلى إلمام واسع بالكمبيوتر ولغة البرمجة،عليه أن يتقن لغة HTML على أقلّ تقدير،كما عليه أن يعرف فن الإخراج السينمائي وفن كتابة السيناريو والمسرح،عاديك عن فنّ المحاكاة»(14).

وتجدر الإشارة ههنا إلى تلاشي الحدود بين المبدع الحقيقي للنص وبين جمهور القرّاء المتلقين للنص،فالتعاون مع المبرمج قد يعني مشاركته في العملية الإبداعية،وهو ما يطرح العديد من القضايا،كحقوق التأليف،وحريّة التعبير ومسألة التلقي وغيرها،وما هو مؤكّد بالفعل هو أنّ الحدّ الفاصل بين"الكاتب"و"القارئ"قد أصبح أكثر ضبابية.

02– النص الورقي والنص الإلكتروني:

وبولوج الحاسوب عالم الإبداع الأدبي وُسِّعَ مفهوم النص،فلم يعد تلك اللّحمة من الحروف والنسج من الكلمات المجموعة بالكتابة،بل أضحى«ما يتمرأى في صورة كلّ مركب من علامات بصرية،عرفية مرصوصة أو مرتبة فوق سطح ذي بعدين،صفحة في كتاب أو ملصق على حائط،أو شاشة حاسب آلي»(15).

إنّ النّص المكتوب على سطح الشاشة هو نص تخيّلي رقمي في الذاكرة الصلبة للكمبيوتر حيث يتم تخزين النص بلغة الآلة،والعلامة المرسومة"Graphic Sign"التي أمامنا على الشاشة ليست هي العلامة التي يتم التدوين بها على القرص الصلب، وهذه العلامة الظاهرة هي حروف الكتابة الصوتية"Phono gram" التي تدخل في علاقات مع بعضها البعض لتعطي لنا"النص الظاهر"،والعلامة المختفية هي علامة رقمية" Digit Gram"تكوّن"نصا مختفيا" تربطه بعلاقات جديدة لم تكن ظاهرة أو موجودة في النص الأصلي(16).

وعلى النقيض من الكلمة المكتوبة،فإنّ الكلمة الإلكترونية ليس لها وجود مادي،فما يظهر على الشاشة هو التعبير الافتراضي لاستدعاء المناظر الرقميDigital للحرف،فالكاتب إلى الكمبيوتر،والقارئ من الشاشة يدرك أنه ليس أمام كلمات مادية حقيقية مثل النص المكتوب أو المطبوع بل أنه أمام حزم إلكترونية تندفع من أنبوب الكاثود القابع خلف الشاشة لكي تشكل على سطحها خيالات تشبه الكلمات،وما أن يفصل التيار الكهربائي عن الجهاز حتى تختفي الكلمات ولا يمكن استعادتها.وحتى لو أراد تخزينها،فإن ذلك يتم بشكل رقمي أيضا سواء على الأقراص الممغنطة أو الضوئية،فهذه الوسائط لا تخزن كلمات،وإنما تخزن المناظر الرقمي لها،والنتيجة النهائية أن الكلمة الإلكترونية فاقدة عنصر الثبات والاستقرار الذي كان للكتابة النسخية والطباعة، وبالتالي فإن المعرفة المستقاة منها متطايرة وفاقدة لعنصر اليقين(17).

لقد جاءت أفكار"تيد نيلسون"لتزيح فكر"جوتنبرغ"وتحرّر النصوص من قبضة تلك الخطيّة الصارمة التي فرضها جمود الورق وثبوت الطباعة،إنّ مطبعة"جوتنبرغ"حوّلت«الأفكار إلى نقوش غائرة في مادة الورق، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتسلب الورق ماديّته بعد أن حوّلته إلى وثائق إلكترونيّة»(18).

النص المفرّع،النص الفائق،النص الإلكتروني الشامل،النص التشعبي الإلكتروني،النص المتعالق،النص التكويني، الهيبرتكست،النص الأعظم،النص المتشعب،النص العنكبوتي،النص المرجعي الفائق،النص التشعبي التخييلي،النص المُمَنهل،النص المترابط،كل هذه المصطلحات تشير إلى مفهوم واحد يتجلّى في«توليفة من النص اللغوي الطبيعي مع قدرات الحاسب للتشعيب أو العرض الديناميكي،فهو غير خطي- Non Linear لا يمكن طباعته بسهولة على الصفحة التقليدية»(19).

ولعلّ أفضل طريقة لوصف النص الإلكتروني هي العودة لمقارنته بالنص المطبوع،فهذا الأخير يؤلفّه الكاتب «في ترتيب محدّد،فيكون للنص بداية ووسط ونهاية.ولا يمكن للقارئ تعديل هذا الترتيب فعليه أن يبدأ النص من بدايته وينتهي في النهاية المرسومة له،ويرتبط هذا النص المطبوع بالنصوص الأخرى من خلال الهوامش السفلية أو الفهارس التي تحيله إلى نص آخر يقرؤه بالطريقة نفسها،فالنص المطبوع إذن تتم كتابته وقراءته على السواء بطريقة متتابعة أو خطيّة»(20).

وقيامه على فكرة"الخطيّة"يعني أن تجاوزها شرط لتحقّق مفهوم النص الإلكتروني في صورتيه:الرقمية باستخدام النظام الثنائي الرقمي(0 ، 1)أو الفائقة باستخدام نظام الترابط"Hypertext"وهو ما يعني أن النص الإلكتروني مبتعد تماما عن الطباعة،ولا يمكن قراءته أو التعامل معه إلاّ من خلال الشاشة ومن خلال تكنولوجيا الكتابة والنشر الإلكترونية،وهو ما يعني أنّه بمجرد طباعته يفقد خواصه الأساسيّة،إنّه«نص ينتشر عبر وسيط إلكتروني بصورة غير متخيّلة،مساحته العالم،ويقدّم نوعا من القراءة التفاعلية المستفيدة من كونه نصا مفتوحا، تتابعه عبر شاشة صغيرة/ نافذة على العالم الواسع،يمكن لملايين المتلقين أن يتعاملوا معه في اللحظة نفسها» (21).

إذن،فالنص الإلكتروني في صورته الفائقة هو ما يمكن أن نعتبره منعطفا حقيقيا في مسار المعرفة الإنسانيّة نتيجة لما يمنحه من إمكانات ربط هائلة«تتنافى مع الكتابة الخطيّة والتفكير التتابعي،حيث يبدأ المرء من البداية إلى النهاية،فالنص المتعالق يمنح القدرة على القفز فوق النص وخارجه،وحوله والتّرحل بين أفكار وقضايا لها ارتباطها[بموضوع ما]،ومع أنّ مثل هذا الترحال ممكن على الورق(كما في حالة الإحالة والهوامش أو الإرشاد إلى كتاب آخر)إلاّ أنّ سهولتها في برامج الحاسب الآلي للنص المتعالق لا تضاهى»(22).

ولأن هناك فروقا أخرى بين النص المترابط(الإلكتروني)وبين النص الورقي(السطري) ارتأينا وضعها في الجدول التالي:

النص المترابط(الإلكتروني)	النص الورقي(السطري)
– متحرّر من سلطة السطر أصلا ومستفيد من ديناميّة التكنولوجيا،وقدّمت له الكتابة	– مقيّد بسلطة السّطر والتكنولوجيا الصّارمة للكتاب ووسائل النشر الراهنة.

الإلكترونيّة فرصة للمرونة لا حدود لها.	
– متحرّك ومتعدّد الوسائط والحوّاس	– ذو بعد واحد هو البعد البصري أو السمعي
– يفجّر الفكر والإبداع،ويحقّق حلم المنظرين للنص المفتوح،وهو أقربُ إلى مشاكلة البيئة الطبيعيّة للتفكير والإبداع.	– يؤطّر عمليّة الإبداع ويأسرها،وهو تاريخيّا مطيّة الفلسفات المنطقيّة العقلانيّة.
– متطوّر في حالة تشكّل دائم،افتراضي،وليس له وجود ماديّ محدّد.	– جامد وغير قابل للحركة وخاضع للتأطير المادّي بسبب قيود آليات الطباعة.
– إمكانات التصغير والتكبير وطلب الانتظار منه متاحة بسهولة لمستعمل الحاسوب.	– يصعب التّحكم في حجمه من خلال المتاحة للقارئ العاديّ.
– منفتح على النصوص الأخرى ومتصل بها دون حواجز من خلال التسهيلات الإلكترونيّة،أي يمكن أن يوجد معها في وقت واحد على الشاشة من خلال النوافذ والاستدعاء والوصلات (العلاقة تزامنية ومفرّعة)	– منعزل شكليا عن النصوص الأخرى حتّى تلك توالد منها،ولا يستطيع أن يتزامن معها.(العلاقة تعاقبية وذات بعد واحد).
– من السهل استدعاؤه كليّا أو جزئيا أو تكرارا،أو مطابقة جملة بجملة.	– في أحسن الحالات يمكن أن يستشهد به (يستدعى) من خلال تمزيقه أو اجتزائه.
– تأليف فردي أو جماعي مع فرص مشاركة مفتوحة نوعيا وكميّا للجمهور المتلقي.	– محصور بمؤلّف فرد مع احتمال شراكة محدودة العدد(غالبا مؤلفان وعلى الأكثر ثلاثة).
– مفتوح عمليا لتفحص المتلقي/المستعمل وتدخلاته على سبيل التعديل والإضافة إلى	– مغلق شكليا على المتلقي،والمتنفس الوحيد له هو التأويل،ولا سيّما من خلال

جانب التأويل.	النظريات الحديثة
– معضلة تخوم النّص وحرمته وحقوق الملكيّة تثير تساؤلات ومخاوف وجيهة.	– مشكلة كيان النص وتخومه محلولة نسبيّا، ومعها حقوق الملكيّة الفكريّة.

03– المتلقي الورقي والمتلقي الإلكتروني:

بظهور آلية النشر الإلكتروني وتغيّر طبيعة الوسيط/الحامل للإبداع من شكله الورقي إلى شكله الإلكتروني تغيّرت طبيعة جلّ عناصر المنظومة الإبداعية،مبدع ونص وقارئ،ولعلّ التغيّر الحاصل في أدوات التواصل مع المعرفة أسهم في انبجاس أشكال جديدة للتعبير تجسّد ذلك التبدّل في الذهنيّة،والتحوّل في رؤيا العالم، فالحامل/ الوسيط–كما يؤكّد عبد السلام بنعبد العالي –لا ينحصر فحسب في أرضية النص،وإنّما يطال مادته وأدوات نسخه(***)،فالمعاني ليست« أرواحا طاهرة،وإنّما تسكن ماديّة الكتابة وتتقمص جسدها وتتغذى من حبرها ودمها،وتتنقل على ظهره،وتقطن أرضيتها،وتحملُ لباسها،وأن يرتوي المعنى حبرا،وأن يلبس كتابة،وأن يسكن دفتي كتاب يحمل اسما بعينه،ليس هو أن يظهر صورة على شاشة صغيرة،والاختلاف ليس هو الاختلاف بين الحبر والذبذبات الصوتية والموجات الضوئية،إنّه اختلاف بين ثقافتين بل بين رؤيتين للعالم»(23).

وممّا تقدّم يمكن القول"إن الوسيط هو الثقافة"،فطبيعة الوسيط،إذن،هي من تحدّد طبيعة الثقافة،ممّا يعني أنّ«التحوّل في تكنولوجيا المعرفة ليس مجرّد تحوّل من تقنية إلى أخرى بل يعني التّحول إلى عقل آخر»(24)، ولذلك يرى"عبد الله الغذامي"–انطلاقا من نظرية "مارشال مكلوهان"(****)–«أنّ شدّة التّغيّر في الوسيلة لابدّ أن تتبعها شدّة مماثلة في تغيير الرسالة نفسها وفي تغيير شروط الاستقبال،ومن هنا يأتي التّغيّر الثقافي بتحوّله من الخطاب الأدبي إلى خطاب الصّورة ومن ثقافة النص إلى ثقافة الصورة»(25)،هذه الثقافة التي تخلق اليوم متلقيها الخاص بها،وشروط ذلك التلقي الجديد،وباتّساع الدلالة المفهومية لمصطلح"النص"وتعدّد أشكاله تعدّدت طرائق تلقيه،«فالسينما نص،وأغنيّة الفيديو كليب نص،وصفحة الويب،ولوحة الفن التشكيلي نص،وكلّها تخضع لآليّة التلقي وتحتاج إلى تلّق من نوع خاص،يناسب المفهوم الجديد»(26).

إنّه وفقا لاتّساع الدّلالة المفهومية لمصطلح"النص"تصبح الشبكة المعلوماتيّة نصا،والواقع الافتراضي نصا أيضا،فهذا الأخير هو حصيلة المزج والتركيب تقنيا بين الواقع الفعلي والواقع الافتراضي أين يتم خلق عالم جديد يعرف اليوم بثقافة الصورة أو نص

الصورة،له من قوّة التأثير على المتلقي ما جعل البعض يطلق عليها مصطلح"البلاغة الإلكترونية"(*****)التي تعمل على تعضيد وتعزيز ومضاعفة بلاغة الصورة المرئية التقليدية، والتي ما فتئت تمارس سلطتها على المتلقي متوسّلة«بكلّ مبادئ التأثير الحديث في علوم نفس الحواس والاستقبال الحسّي والإدراك...[حيث]لا يمكن للمشاهد إلاّ الاستسلام لمتعها العديدة،وبالتّالي تأثيرها الصريح منه والخفيّ، المباشر والمداور،اللاّحق والآني»(27).

وبعدما كان الواقع الفعلي يُتلقّى حسيا ويعملُ الإنسان (مبدعا أو مفكّرا)على تمثيله«إمّا ذهنيا/ مخياليا (الإبداع الأدبي)،أو عقليا منطقيا(الفكر)(28)هاهو نص الواقع الافتراضي«لا يعود إلا فائقا في تلقيه،أي تشترك فيه المعرفة المسموعة والمقروءة والمرئية دفعة واحدة،وهذا يعني أنّ معرفة العصر الحسيّة تستدرج سائر الحواس مجتمعة،وبوتيرة واحدة»(29)،كلّ ذلك لأن طبيعة النص الجديد تغيّرت بتغيّر طبيعة متلقيه،ولا شك في أنّ من يملك شروط الحقيقة المشهدية هو القارئ الوحيد القادر على تأويل المشهد أو قراءة نص الواقع الافتراضي وفهمه وتفسيره والقبض على دلالته ومعانيه،«ولمّا كانت[تلك]الثقافة ممكنة التّلقي عبر الوسائلية الجديدة فإنّها ممكنة الاتّسام بميسمها من حيث هيمنة المرئي والأثيري على المقروء التقليدي،خصوصا الورقي منه،والشكلي على غيره من المعتاد،على أنّ نزعة التكامل اللّوني والصوتي والقرائي جعلت مستوى التلقي مرتبطا بطبيعة هذا النوع من المادة الثقافيّة»(30).

وإذا كان من ميزات"النص المترابطHypertext"إمكانية ربطه بتقنية الوسائط المتعدّدةMultimédia أي بملفات الصوت والصورة والأفلام المتحرّكة ليشكّل نصا شبكيا Cybertext فإن هذه التقنية الجديدة «تفتح أبوابا غير مطروقة[من قبل]في العلاقة بين الكاتب والمستفيد،وهي علاقة مباشرة ومتجدّدة توفّر المعلومات والبيانات بالصّور والكلمات والأشكال والمجسّمات المتحرّكة والنماذج،كما تتيح فرصة التفاعل الحيّ والمناقشة بين الكاتب ومجتمع القرّاء من جهة والمهتّمين من جهة أخرى»(31).

وبتحقّق تلك التفاعليةInteractive سواء بين المستعمل(******)وبين النص الشبكيCybertext من خلال العمليات التي يقوم بها،وهو ينتقل بين الروابط لتشكيل النص بالطريقة التي تفيده،متجاوزا القراءة الخطية التي يقوم بها قارئ النص الورقي/المطبوع أو بين الوسائط المتعدّدة في حدّ ذاتها،فيمكنك-على سبيل المثال- وأنت تقرأ«موضوعا في مجلة"العربي"أن تشاهد على شاشة الجهاز في الوقت ذاته فيلما متحرّكا

حول الموضوع نفسه، أو رسوما متحرّكة ومقطوعة موسيقية كخلفيـــة متممـــة ومعمّقـــة للمعنى الذي تقرؤه»(32).

وبما أن الأدب مؤسسة تعتمد المطبوع فإنّ أيّ تحوّل يطال الأدب المطبوع ويغيّر صورته سيطال النظرية النقدية القائمة على غراره،إنّ"المفهوم التقليدي للنقد وآلياته لم يعد يصـــلح لمقاربة النص الجديد لذلك يجمل بالخطاب النقدي الناشئ حول الأدب التفـــاعلي أن يعيـــد تشكيل نفسه من جديد،فنظرية القراءة حتّى وإنّ ارتبطت بـــالأدب المطبـــوع فهـــي مـــا تزال«غضّة طريّة،ومازال الكلام فيها متّسعا،وقد يحمل نقادها المتحمّسون بعض شـــتاتها ليلقوه إلى ذاكرة القرن الواحد والعشرين...إنّ مشكلة التلقي التي تذرُ قرنها فـــي الســـاحة الثقافية في الغرب إيذان بتغيّر خارطة الأدب والنقد»(33).

إنّ تغيّر ترسي معالمه نظرية القراءة من خلال تحرير القارئ من سجن النسق ليصـــبح مركز العملية النقدية بعدما ظل القارئ لحقبة من الـــزمن ســـجين أنســـاق الـــنص مـــع البنيوية،بذلك يغادر القارئ موقع القراءة السلبية ويبحـــث عـــن مواقـــع أكثـــر إيجابيـــة وتفاعليّة،«إنّ قارئ المستقبل لن يكون بنفس الطواعيّة والتلقائية والاتّكاليّة الذّي اعتدناه في السابق،فستتحوّل وتتبدّل العلاقة التقليدية بين القارئ والكاتب وكذلك الناشر،فهي إن كانت في اتّجاه واحد حتّى الآن ويغلب عليها الطابع السلبي،أي نموذج الأستاذ بالتلميذ،فســـتكون مستقبلا تفاعلية (Interactive)بل ومتعدّدة الجوانـــب مـــن خـــلال مجموعـــات المستفيدين(User Groups) وستقوم على الاتّصالات الإلكترونيّة السهلة والســـريعة وستستعين بالتقنيات متعدّدة الطرائق(Multimédia)،مستفيدا من شـــبكات الاتّصـــال الحديثة عبر الأقمار الصناعيّة والألياف الضوئية فائقة السرعة والسّعة»(34).

لقد بات على القارئ – والحال تلك– أن يستفيد من مقرّرات العصر ليدخل منعطفا جديدا في التّلقي وتتم زحزحة– ولو قليلا–« فكرة المتلقي التقليدي،[وتتجاوز]الفكرة السائدة بـــأن المتلقي هو القارئ فقط،وإذا كان هذا المفهوم مناسبا لعصر القراءة فإنّه لا يتناسبُ تمامـــا مع عصر مغاير يعتمد آليات جديدة مفارقة إلى حدّ كبير للآليات القديمة،لذا فـــإن مجـــال الكمبيوتر وتطبيقاته وشبكة الإنترنت تخلق متلقيا جديدا تنمي فيه أشـــكالا جديـــدة للتلقـــي خارج نطاق الفكرة السائدة:أنّ التلقي= القراءة»(35).

إنّ عولمة الأدب تقتضي عولمة جميع مكوّنات المنظومة الإبداعيـــة،فالمتلقي الإلكترونـــي بحاجة ماسة إلى امتلاك آليات الثقافة الإلكترونية،شأنه في ذلك شأن"المبدع الإلكتروني"،لقد فرض«النص الجديد شروطا جديدة للتّلقي[لذلك]أخذ المنظرون يتحدّثون عن"قارئ المستقبل

الجديد"،وعن المواصفات أو الشروط التي ينبغي توافرها فيه،مثل:إجادة التعامل مع الحاسب الإلكتروني،ومعرفة لغته وامتلاك مهارات التّصفح والبحث،والقدرة على الإبحار في الإنترنت،والإلمام ببرامج الحاسب الأساسية ،وبمهارات بناء البريد الإلكتروني ،وامتلاك عقلية تحليلية تركيبية تكون قادرة على مجاراة المنطق الرياضي للحاسب»(36).

وبغير تلك القراءة التفاعلية لا يمكن أن نتحدّث عن أجناسيّة جديدة،فالقارئ التفاعلي عنصر أساس في تحديد مفهوم الأدب التفاعلي Interactive Literature ودونه لا يمكن الحديث عن تحقّق ذلك المفهوم،فالأنواع الأدبية الجديدة، كالرواية التفاعلية،والقصيدة التفاعليّة،والمسرح التفاعلي تشترط وجود قارئ تفاعلي باستطاعته الولوج إلى النص المترابط أو النص الشبكي لتفكيكه وتقطيع متنه لإعادة تركيبه بحسب أغراض القارئ كما يرى"علي حرب".

إحالات

(*)- بالنسبة لرجال الكنيسة تمثلت المشكلة في أن الطباعة ستسمحُ للقرّاء ذوي المكانة المتدنيّة في الهرم الاجتماعي والثقافي بأن يدرسوا النصوص الدينية بأنفسهم دون الاعتماد على ما تقوله المرجعيّات.

(1)- نبيل علي:الثقافة العربية وعصر المعلومات،رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي،عالم المعرفة،ص96.

(2)- أحمد أبو زيد: ماكلوان والثورة الإلكترونية،كتاب العربي،ع46،أكتوبر2001،ص51.

(3)- أحمد أبو زيد:« تكنولوجيا الاتّصال هل تدعمُ الغربة والانعزال؟»،مجلة العربي،ع544،وزارة الإعلام،دولة الكويت،مارس2004،ص29. (4)- أحمد أبو زيد: ماكلوان والثورة الإلكترونية،كتاب العربي،ع15،وزارة الإعلام،دولة الكويت،2003،ص45.

(5)- المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

(6)- أسا بريغر وبيتر بورك:«التاريخ الاجتماعي للوسائط،من غوتنبرغ إلى الإنترنت»،عالم المعرفة،ع315،المجلس الوطني الثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت،ماي 2005،ص24.

(7)- الطيب بودربالة:«سيمائية وسائل الإعلام:مارشال ماكلوهان نموذجا»، محاضرات الملتقى الوطني الثالث،السيمياء والنص الأدبي منشورات جامعة محمد خيضر،بسكرة، 2004،ص02.

(**)- جوهان غوتنبرغ،نجّار ألماني من مدينة"مينز"ينسب إليه اختراع الطباعة التي ربما يكون قد استلهم فكرتها من معاصر العنب التي كانت منتشرة في وادي الرّاين الذي ينتمي إليه "غوتنبرغ"،إذ تقوم كلتا الآلتين على فكرة القالب المعدني المتحرّك.

(8)- جيهان الشناوي:« الكتاب الإلكتروني يغيّر وجه القراءة »،ضمن"مستقبل الثورة الرقميّة،العرب والتّحدي القادم ،كتاب العربي،ع55،وزارة الإعلام،دولة الكويت،2004،ص102.

(9)- عبد السلام بنعبد العالي «ثقافة الكتاب وثقافة الشاشة»مجلة فكر ونقد،على الموقع:http ://www .fikr wa nakd aljabri abed. net

(10)- فاطمة البريكي:مدخل إلى الأدب التفاعلي،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط1،2006،ص136.

(11)- محمد أسليم: المشهد الثقافي العربي في الإنترنت (قراءة أوّلية) على الرابط: htm aslim com/baba http://www.Addou.

(12)- الموقع نفسه.

(13)-أحمد عبد الفتاح:الأدب والتقنية،النقد الأدبي على مشارف القرن الواحد والعشرين:العولمة والنظرية الأدبية،أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي ،القاهرة،نوفمبر2000،ص 388.

(14)- محمد سناجلة:رواية الواقعية الرقمية،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،ط1، 2005،ص89.

(15)- بابيس ديرميتراكيس:«النص التشعبي:ما وراء حدود النّص»،النقد الأدبي على مشارف القرن الواحد والعشرين:العولمة والنظرية الأدبية، أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي،القاهرة،نوفمبر2000،ص375.

(16)- أندراس كبانيوس:« النص التشعبي:إمكان القراءة الثلاثية الأبعاد»، النقد الأدبي على مشارف القرن الواحد والعشرين:العولمة والنظرية الأدبية،أعمال المؤتمر الدولي الثاني للنقد الأدبي ،القاهرة،نوفمبر2000،ص353.

(17)- حنا جريس:« الهيبرتكست عصر الكلمة الإلكترونية»،مجلة العربي،ص146.

(18)- نبيل علي:«الثقافة العربية وعصر المعلومات،رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي»،عالم المعرفة،ص256.

(19)- ناريمان إسماعيل متولي:«تكنولوجيا النص التكويني"الهيبرتكست"وتنمية الابتكار لدى الطلاب والباحثين،مجلة المكتبات والمعلومات العربيّة»، س17،ع1،تونس،يناير1997،ص06.

(20)- حنا جريس:« الهيبرتكست عصر الكلمة الإلكترونية»،مجلة العربي،ص ص 147-148.

(21)- مصطفى الضبع:«نص جديد ومتلق مغاير،قراءة في الملامح الجديدة للكتابة والتّلقي»،الثقافة السائدة والاختلاف،كتاب الأبحاث،مؤتمر أدباء مصر،الدورة العشرون،بورسعيد،2005،ص371.

(22)-سعد البازعي وميجان الرويلي:دليل الناقد الأدبي،إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا،ص270.

(***)- تحدّث رولان بارت"Roland Barthes"- فيما نقله عبد السلام بنعبد العالي- في دراسته ثقافة الكتاب وثقافة الشاشة":« عمّا يدعوه بروتوكول الكتابة،[وعن] علاقة الوسواس التي تشدّه إلى أقلام بعينها،وتلك التي تربطه بأنواع الحبر وأدوات الكتابة،كما يشير إلى علاقته بآلة الكتابة وما يتولّد عن استعمالها من أثر على النص وطريقته كتابته التي تتنافى مع التحوير والخدش والإضافة والحذف والتنقيح.

(23)- عبد السلام بنعبد العالي:»ثقافة الكتاب وثقافة الشاشة»،مجلة فكر ونقد،على الموقع: http ://www .fikr wa nakd aljabri abed. net

(24)- حنا جريس:« الهيبرتكست عصر الكلمة الإلكترونية»،مجلة العربي،ص146.

(****)- يذهب الناقد"عبد الله الغذامي"إلى أن الوسيلة تكسب قيمة إضافية فلا تكون هي الرسالة كما هو القول الشائع بأن الوسيلة هي الرسالة،بل ربّما تجاوزت ذلك لتكون هي الرسالة والمرسل أيضا،أي نهاية دور الإنسان مرسلا ليتولى الوسيط ذلك.

(25)- عبد الله الغذامي:الثقافة التلفزيونية،سقوط النخبة وبروز الشعبي،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط2005، 2،ص25.

(26)- مصطفى الضبع:«نص جديد ومتلق مغاير،قراءة في الملامح الجديدة للكتابة والتلقي»،ص372.

(*****)- إن التقارب كبير بين شروط الحقيقة المشهدية وبين البلاغة الإلكترونية المكوّنة من عدة آليات منها:مؤثرات الصوت المجسّم والألوان المبهرة، وتقنيات التكثيف والتركيز والتصغير والدمج والإفراز والإنزال والمزج والتسلسل إلى ما هناك من تقنيات إخراج.

(27)- مصطفى حجازي:حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،المغرب،ط1،ص31.

(28)- رسول محمد رسول: نقد العقل التعارفي،جدل التواصل في عالم متغيّر،المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،ط2005 ، 1،ص 93.

(29)-المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

(30)-المرجع نفسه،ص ص 19-20.

(31)- أحمد بشارة:«قارئ المستقبل،مستقبل الثورة الرقمية،العرب والتحدّي القادم»،كتاب العربي،ع 55،وزارة الإعلام ،دولة الكويت،ص80.

(******)- يرى"سعيد يقطين" أن المستعمل عكس المتصفح لأنّ له دراية بالنص وأنواعه ومساراته،ودربة في الانتقال بين العقد والوصول إلى مراميه دون ضياع أو تيهان،لذلك فالمستعمل متلق إيجابي لأنّه منتج للمعارف التي يبحث عنها،ويصبح تبعا لذلك مشاركا لمؤلّف النص المترابط، وقادرا على التفاعل معه بطريقة منتجة.

(32)- سليمان العسكري:عالمنا العربي ومستقبل الثورة الرقمية، العرب والتحدّي القادم»،كتاب العربي،ع 55،وزارة الإعلام ،دولة الكويت،ص 05.

(33)- محمد المبارك:استقبال النص عند العرب،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،ط1999 ، 1،ص ص09-10.

(34)- أحمد بشارة:«قارئ المستقبل،مستقبل الثورة الرقمية،العرب والتحدّي القادم»،كتاب العربي،ص80.

(35)- مصطفى الضبع:«نص جديد ومتلق مغاير،قراءة في الملامح الجديدة للكتابة والتلقي ،ص373.

(36)- أحمد أحمد عبد المقصود:الأدب التفاعلي والنظرية النقدية، على الموقع: http://al-watan.com/printitasp?news=culture&date=20070428.